

الولد الأكبر

الفريد أدلر من السيكولوجيين العصريين الذين عنوا أكبر العناية بالسنين الأولى لحياة الإنسان أى سنى الطفولة وأثرها في مستقبله من حيث نجاحه أو خيبته ، وتقدمه أو تخلفه وتقرير أخلاقه التى سيعيش بها حتى فى سن الشيخوخة . وكان من أكبر ما التفت إليه وأولاه دراسة خاصة موضوع الطفل البكر ثم مكان الطفل بين إخوته من حيث من يكبره ومن يصغره من الأولاد المحبوبين أو المكروهين . فهو حين كان يجد أحد الأشخاص يشكو عقدة أخلاقية كان يسأله عن ترتيبه بين أخوته : هو هو أكبرهم ؟ هل دو أصغرهم ؟ هل سبقته بنات أو بنون ؟ ومن أحقبه بعد ذلك ؟

وهذا لأن أدلر يرى أننا فى السنين الخمس أو الست الأولى نعتنق أسلوبا من الأخلاق يلازمنا مدى الحياة . فإذا كنا قد نشأنا على الحب والتعاون فى هذا الوسط العائلى الأول فإنا ندخل المجتمع ونحن نعامل أفراد هذا الأسلوب . وإذا كنا قد نشأنا على الحسد والبغض والانتقام فإنا نتمو ونشب على هذا الأسلوب حين نعامل أفراد المجتمع . وقد يستطيع بعضنا يجهود عظيم أن يغير من هذا الأسلوب بعد أن يرى نتائجه السيئة تتكرر ، ولكن معظمنا ليس له من الذكاء أو من الهمة ما يبعثه على هذا التغيير فىبقى بأخلاقه الأولى طفلا كبيرا ولو بلغ الخمسين أو الستين من العمر .

وموضوع "الولد الأكبر" من الموضوعات التى يجب أن نعتنى بها فى مصر . وعبارة "الولد الأكبر" تعنى عند أدلر أكثر مما نفهم من هاتين اللفظتين . فإن أدلر يقصد بهذه العبارة كل ولد ميزه أبواه على سائر إخوته وحبايبه أو دلاله . فنحن نعرف مثلا أن الزوجين يشغفان بالولد البكر سواء أكان أبنا أم بنتا إذ هو يستأثر بهما بلا مزاحم فالأم توليه عنايتها كلها والأب يجد فيه ما يشبع شوقه إلى الأولاد . ولكن هناك أيضا أولادا ليست لهم ميزة الأولوية من حيث الميلاد ولكنهم يعاملون معاملة الولد البكر لميزات تجعلهم فى مكانته ، فقد يحدث أن تلد الأم أربع بنات متواليات ثم تلد ولدا ذكرا بعد اشتياق طويل إلى الصبيان ، فيحظى هذا الصبي من المحابة والمطف الخاص بالآلا يحظى بمثله إخواته البنات الكبار . أو يحدث أن تلد الأم بنتا بعد ذكور ، أو ولدا وسما يأتى بعد أولاد ليست لهم وسامته . فإن كل هؤلاء يتنازون عندئذ بميزة الولد البكر ، فيبعثون الحسد والفيظ والكراهية فى نفوس

إخوتهم الآخرين لأنهم يتمتعون في معاملة الأبوين بنصيب لا يتمتع أولئك بمثله ، بيد أن هناك أضرارا أخرى تعود على الولد الممتاز أو " البكر " كما يسميه آدلر ، وهي أفدح من الأضرار التي تعود على إخوته غير الممتازين . فإن هذا الولد لفرط ما لقي من حب والديه ومبادرتهما إلى تلبية رغباته يصير أنانيا طمعا متلافا لا تنهى مطالبه التي لا تكلفه غير الأمر ينطلق به فبطاع .

ثم إنه يسرع إلى الغضب حين لا يجد التلبية العاجلة لأوامره لأنه لم يتعود رفضا ولا مقاومة كما لم يتعود الاشتراك مع إخوته في متع البيت وطرائفه . وهو لا يعرف كيف يتعاون مع إخوته لأنه تعلم من أبويه أن يلاعبه كما يهوى لا كما يهويان . فهو يستبد في اللعب ويجهل الروح الرياضي فلا يقبل الهزيمة راضيا بل يصخب ويفسد كل لعبة يلعبها مع إخوته إذا لم يكن له فيها مكان ممتاز . ثم هو لا يطبق الخضوع لأنه إنما تعود أن يرى أبويه يخضعان له ولم يتعود أن يخضع لهما . وهذه الحالة تلتصق به وتنقلب عذابا له ولأبويه وللعلم عند ما يشب ويدخل في طور التلمذة إذ يعصى الجميع ويرفض الخضوع لأحد . وهو بعد ذلك يكره بذل المجهود ويرى نفسه مظلوما عند ما يكلف ذلك فيثور ويصخب لأى عنت أو عناء وأعجب من ذلك أن هذا الولد البكر يتمي إلى أن يكره أبويه . لأن هذين الأبوين بعد خمس أو ست سنوات من المحاباة والتدليل يريان أن من حق هذا الولد عليهما أن يربي ويعلم بل من حق إخوته أيضا أن يستروا به في الحقوق والواجبات . وعندئذ يخشوشن كل منهما نحوه ويجد هو هذا الاخشيان جديدا ، طارئا لا معنى له . وقد يكون محقا في هذا ، إذ أنه لم يتغير في أسلوب الحياة الذي ألفه وإنما الذي تغير أبواه ، وعندئذ لا يكون غريبا منه أن يكرههما لهذا التغيير . وقد يستطيع أبواه إذا كانا على شيء من الذكاء والتبصر أن يصلحا في أمره بعض الشيء ، وأن يعالما أسلوبا أخلاقيا جديدا . ولكن النجاح ليس مرجحا في مثل هذا الإصلاح المتأخر .

والنتيجة لهذا الأسلوب الذي يتعده " الولد البكر " في سنيه الخمس أو الست الأولى أنه يربح فيه إلى سن الرجولة ، ومن هؤلاء ستكون رجال ونساء أنانيون تزقون سريعو الغضب يكرهون التعاون مع المجتمع ، فزرى فيهم الزوجة التي تبرع في مخاضة زوجها ولا تحسن مصالحته ، والزوج الذي يجب أن يجند أعضاء البيت كلهم لخدمته كأن ليس في البيت أحد سواه ، والتلميذ الكسول الذي يرفض بذل المجهود في المدرسة ثم في المكتب أو في المصنع ، والموظف الذي يأبى الخضوع لرئيسه وينفر من أوامره ويشور عليه كأنه أحد أبويه يعامله بمثل ذلك الأسلوب الذي عاملهما به أيام طفولته ، بل تجدد فيهم أحيانا ما هو أفدح وأفظع من هذا ، نجد المجرم الذي لم يستطع التعاون مع المجتمع ولم يستطع الانتظام في عمل كاسب

يقتضيه الخضوع والمواظبة والمجهود ، فهو يعمد إلى العنف والبطش بأعضاء هذا المجتمع كما كان يعمد إلى الصراخ والصخب والثورة على أبويه أيام طفولته ، ويجب ألا يفوتنا أن الجريمة هي ردة إلى الطفولة ، وإذا لم يكن السجن هو آخر المراحل السيئة لاولد المدلل فقد يكون المارستان آخر هذه المراحل ، لأن الجريمة هي انفجار بعد كظم ، والجنون هو كظم بالغ لا تطيقه النفس الإنسانية .

ولسنا نقول إن كل تدليل يؤدي إلى هذا المصير السيئ لأن من حسن الحظ أن الأبوين يريان ويحسان هذا السلوك السيئ الذي اعتاده طفلها فيحاولان تغييره باللين والاقناع وأحيانا بالعنف والشدة . بل إن من حسن حظ الطفل نفسه أن له أخوة لا ينظرون إليه نظرة أبويه وإنما يعاملونه بالمساواة وفي نزاهة تؤذيه أولا وتنفعه أخيرا ، فهو يتعلم منهم دروسا لم يتعلم مثلها من أبويه ويأخذ منهم فضائل في معاملة المجتمع تعوضه في أكثر الأحيان عن الرذائل التي تعلمها بالمحاباة والتدليل من أبويه . أما إذا لم يكن له أخوة فإن المرجح أن ينشأ أسوأ نشأة ، فلا يعرف كيف يعامل زوجته أو خادمه أو أولاده أو سائر أفراد المجتمع . فيجب علينا أن نفتتح أعيننا لهذه الحال وأن نعامل أطفالنا بالمساواة التامة لا نميز الابن عن البنت ولا الولد الأكبر على سائر إخوته ولا الولد الوسيم على أخيه الدميم ، لأن مثل هذه العواطف التي نرسلها إرسالا بلا ضابط تؤذى الأولاد في مستقبلهم وتعود عليهم بالضرر الفادح . والبيت هو القالب الذي تصب فيه أخلاق الطفل الأولى ، وبعيد جدا أن تتغير هذه الأخلاق في المستقبل .